ثانياً

مكانة العقل في القرآن والسنة

﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

[البقرة:٤٤].

مكانة العقل فى القرآن والسنة

إذا نظر أى منا لتلك الكتلة الإنسانية المتمثلة فى النفس البشرية وتفكرنا كيف تتصرف، سنجد أن هناك ما يسيرها ألا وهو العقل.. **فماذا عن مكانة العقل فى الإسلام ؟!**

إن مظاهر تكريم الإسلام للعقل أكثر من أن تعد أو تحصى، فهو قد اعتبر وجود العقل وقدرته على التمييز أساساً للتكليف بالأحكام الشرعية، وتحمل المسئولية التى فرضها الإسلام على كل ذى عقل .

ومع ذلك فإن العوارض الخارجية التى تؤثر على عملية التعقل، وتكون طارئة على الإنسان، اعتبرها الإسلام عذرا يرفع عن المسلم المؤاخذة الإلهية على ما يصدر عنه فى مثل تلك الحالات.

فالقرآن الكريم يقول معلماً إيَّانا: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة:٢٨٦].

وإذا انتقلنا إلى نمط آخر من أنماط تكريم الإسلام للعقل فسنجد أن الله - عز وجل-يبين فى القرآن الكريم أن الأحقاء بأن ينتفعوا بكلام الله وبآياته هم الذين يعقلون، وقد جاء فى هذا الصدد قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَومٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤].

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية:١٣].

وقوله تعالى:﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٣].

وفيما يقابل ذلك فإن الله - عز وجل- قد عاب على من لم ينتفع بآياته ويعتبر بآثار صنعه سبحانه- عاب عليهم عدم التعقل والتفكر.

قال الله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٧٠].

وقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَو نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠-١١].

بل إن القرآن الكريم قد أوضح أن أولئك الذين فقدوا التعقل قد أصيبوا ببلادة الحس، وفقدان الشعور، وإهلاك النفس، وعدم التعقل، وصاروا كالأنعام بل هم أضل، حيث

يقول الله تعالى:﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال:٢٢].

وانطلاقاً من هذا كله كان العقل هو مناط التكريم الذى كرم الله به الإنسان وفضَّله على كثير من خلقه، حيث يقول الله تعالى:﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء:٧٠].

ولقد شاع فى الجو الإسلامى هذا المعنى حتى ألف بعضهم كتباً فى العقل، وتضمنت بعض الكتب الإسلامية فصولاً عن العقل وشرفه، واعتبروا أن شرف العقل أمر مدرك بالضرورة لايحتاج إلى دليل ومع ذلك يعمل الإنسان على ضياع عقله .

وفى ذلك يقول أبو حامد الغزالى – فى إحياء علوم الدين ١/ ١٤١ – "فشرف العقل مدرك بالضرورة وإنما القصد أن نورد ما وردت به الأخبار والآيات فى ذكر شرفه وقد سماه الله نورا فى قوله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور:٣٥].

وسمى العلم المستفاد منه روحاً ووحياً وحياة، ثم ساق من الأحاديث ما يرشد إلى ما كان للعقل من عظيم المنزلة ورفيع الذكر فى مجتمع المسلمين .

وهذه الأحاديث وإن ضعَّف العلماء أسانيدها غير أنها لاتخلو عن أن تكون صدى لمبادئ ومعايير سادت التفكير الإسلامى، وإن لم تكن مبنية على تلك الأحاديث فإنها مبنية على ما قدمناه من الآيات القرآنية وأمثالها، ومن ثم تصبح تفسيراً اجتهادياً لما ترشد إليه تلك الآيات الكريمة.

على أننا نجد العلماء بالقرآن والسنة حين يمدحون بعض الناس يجعلون معيار الفضل هو العقل.

فلقد سئل سفيان عن الأحنف بن قيس فقال: " ماوزن عقل الأحنف بعقل أحد إلا وزنه".

وقيل لابن عباس – رضى الله عنهما-: بماذا نلت العلم؟ قال: "بلسان سئول وقلب عقول".

وعن عمر – رضى الله عنه- أنه قال لتميم الدارى : "ما السؤدد فيكم؟ قال العقل"، بل تجاوز الأمر هذه النظرة إلى حد أن اعتبرت زيادة العقل زيادة فى القرب إلى الله، كما اعتبرت منزلة العقل أعظم من منزلة العرش، ومع ذلك يعمل الإنسان جاهداً على إتلاف العقل لوهم أصابه.

ولم يقف الأمر فى شأن العقل عند ذلك، بل إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة قد أعطيا من التوجيهات والإرشادات ما يتيح للعقل فرصة النمو والارتقاء وما يكفل له الحفظ والصون ويحميه من الضرر والتخليط.

ففى جانب تنمية العقل نجد الآيات والأحاديث التى تحث على طلب العلم والاستزادة منه. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه:١١٤].

وقال الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة:١٢٢].

وقال الله تعالى: ﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَاتَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء:٧].

وكذلك الآيات التى تدعو إلى النظر والتفكر والاعتبار، ومن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴾ [الروم:٨].

بل إننا نجد أن القرآن الكريم يدعو إلى فتح منافذ الحس التى تنمى العقل والفكر.

فيقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الأعراف:٢٠٤].

ويقول تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾

[الزمر:١٨].

وبالمثل دعا القرآن الكريم إلى سد المنافذ الحسية التى تؤثر فى العقل بالتخبيط والتخليط.

فقال تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلاَ تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:٦٨].

وقد مدح الله أهل الإيمان فقال الله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الجَاهِلِينَ ﴾ [القصص:٥٥].

وقال تعالى: ﴿ والَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴾

[المؤمنون:٣].

وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ لا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴾ [الفرقان:٧٢].

وقد حذَّر القرآن أولئك الذين يحاولون أن يزيفوا الفكر ويلبسوا الحق ثوب الباطل ويخلطوا على عقول الناس أمرهم

فقال الله تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنعام:١٤٤].

وإذا كان الإسلام يدعو إلى المحافظة على العقل أمام المؤثرات الفكرية والنفسية، فهو لاشك يدعو إلى المحافظة عليه من المؤثرات المادية المتمثلة فى الاعتداء على الجسم بما يذهب منافعه وفى ذروتها العقل.

كما ورد عن عم أبى قلابة - رضى الله عنه-: " أن رجلاً رمى آخر بحجر فى رأسه فى زمن عمر - رضى الله عنه- فذهب سمعه وبصره وعقله، ولم يستطع قربان النساء، فقضى عمر فيه بأربع ديات وهو حى"، وقد زعم صاحب البحر أن قضاء عمر هذا لم ينكره أحد من الصحابة فكان إجماعاً، وروى البيهقى من حديث معاذ بن جبل (إن فى العقل الدية).

ومعنى تلك الآثار أن من أذهب عقل إنسان، فكأنما أفقده الحياة، وكما أنه لا يحل للغير الاعتداء على نفس الإنسان أو على عضو منها، فكذلك لايحل للإنسان أن يعتدى على نفسه أو على عضو منها بتدميرها أو بتدميره.

وكما حرم على الغير الاعتداء على العقل، كذلك يحرم على الإنسان أن يعتدى على عقله بأية صورة من صور الاعتداء،

وهـذا يـسلمنا بـدوره إلى تبـين التغلـيظ الـشرعى فى تعـاطى المسكرات أو المخدرات التى مـن شـأنها أن تـذهب العقـل أو تعطله عن حسن أدائه لوظيفته بالخمول أو الركود والفتور وما إلى ذلك.

- **العقل فى نظر علماء الإسلام:**

ليس العقل فى نظر علماء الإسـلام عـضواً بعينـه فى جـسم الإنسان، صحيح الفكر سليم التمييـز، وفى ذلـك يقـول ابـن تيمية: "والعقل المشروط فى التكليـف لابـد أن يكـون علومـاً (أى به إدراكات) يميز بها الإنسان بين ما ينفعه وما يضره.

فالمجنون الذى لا يميز بين الـدراهم والفلـوس، ولا بـين أيام الأسبوع، ولايفقه ما يقال له من الكلام ليس بعاقـل، أمـا من فهم الكلام وميز بين ما ينفعه وما يضره فهو عاقل".

ونسـتنتج مما سـبق أن العقـل هو القوة المتحكمة فى تـسيير أمور النفس سواء أكان خيراً أم شراً، ويساعد العقل المسئولية فى الأحكام على الأشـياء القلب والسمع والبـصر. قـال اللـه تعالى: ﴿وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ والْبَصَرَ والفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولا﴾ [الإسراء:٣٦].

وفى حال اختلاف هؤلاء معا تتدخل الإرادة لتوجه العقل

للقرار التى تراه صحيحاً سواء أكان مخالفاً لرغبة النفس أو جامحاً لها.

وحتى لا نبعد بعيدا لابد لنا من وقفة مع العقل..فما هو **العقل وأين يوجد ؟!**

يقال إن العقل يوجد فى الدماغ، وهو طاقة غير مادية وجزء من الذات الإنسانية غير المادية وهى النفس والروح والعقل، وهو متصل بالمخ، والدليل أن الإنسان يذهب عقله إذا تناول أى شيء مُسكر أو مخدر.

فالعقل يتصل بالمخ، ولكنه لا يوجد داخله حيث توصل جراحو المخ إلى أن قدرة العقل فى المريض لا تتأثر إذا تم استئصال أى جزء من المخ .

وكذلك لو نظرنا للدواب التى تشبه أدمغتها أدمغة الإنسان تماما من الناحيتين التشريحية والفسيولوجية،ومع ذلك هى تعيش بالفطرة وتوجهها غرائزها وليس عقلها، وذكاؤها إذا وجد فهو فطرى، ولذا فهى غير مكلفة ولا تحاسب.

فالعقل منحة من الله تعالى للإنسان، وهو طاقة هائلة من القدرة والإدراك وبواسطته يعرف الإنسان خالقه ويعبر عن نفسه وتتحرك النفس البشرية من خلاله، وإذا ذهب العقل لايكون الإنسان مسئولاً عن تصرفاته.

والآن يراودنى سؤال: هل العقل يموت؟

بما أن العقل جزء من الذات الإنسانية – أى النفس – التى لاتموت بموت الجسم، وإنما تعود إلى الله تعالى، والدليل على ذلك أن الإنسان يجادل ويتحدث عن نفسه يوم القيامة، كما قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [النحل:١١١].

والعقل يدخل مع صاحبه الجنة أو النار حيث يتخاطب أهل الجنة مع بعضهم البعض كما جاء فى الآيات الكريمة: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۞قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ۞ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ۞ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴾ [الطور:٢٥-٢٨].

وأهل النار يتجادلون أيضا كما جاء فى قوله تعالى: ﴿ قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٨].

وكذلك يتحدث أهل الجنة مع أصحاب النار كما قال الله تعالى: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا

وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّـهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف:٤٤].

وكل هذه الآيات تدل على أن العقل لا يموت ويظل بداخل النفس البشرية التى تصعد لربها.

فإذا كانت النفس شيئاً روحياً، والجسد شيئاً مادياً، والعقل يسكن النفس، والنفس بكتلتيها الخير والشر مسكنها الجسد وربما القلب كما اتضح من بعض الآيات والأحاديث، فماذا عن مكانة القلب فى الإسلام ؟.

* * *